من مشاكل التاريخ

طبيعة الفتح الاسلامي (*)

للأستاذ خليل جمعة الطوال

اعتاد المؤرخون الأقدمون ، وجاراهم فى ذلك بعض المحدثين أن يسموا وقائع الفتح الاسلامي «غزوآ» ؛ وفاتهم ما تحمل هذه الكلمة فى تضاعيفها من معانى النهب ، والسلب ، والعبث ، والتمثيل ، مما هو فى أحكام هذه الأمور من أنواع الجرائم والشرور التى نهى عنها الاسلام وتجافاها المسلمون فى فتوحهم. ولقد أطلق هؤلاء المؤرخون هذه الكلمة على الفتح الاسلامى سهواً وتساهلا ، وما أحسبهم قصدوا بها هذه المعانى المستنكرة التى تؤدى إليها ؛ فأخذها عنهم المتعصبون على الاسلام ، والكارهون لهذا الدين الحنيف وفسروها بما أملته عليهم منازعهم وأحقادهم ، ثم روجوا لها فى كتاباتهم ، حاسبين أنهم بذلك قد قوضوا أركان الاسلام ، وصدعوا بنيان حضارته ، تلك الحضارة السامية التى ما زالت ولن تزال منارة العدل والانسانية والحرية

وأكثر ما يضحكنا من هذه البدع المضللة ، والجهالات الطائشة ، ما جاء فى كتاب تاريخ آسيا لهربرت كوفين إذ يقول : « إن الديانة الاسلاميـة التى يقدسها مائتان وثلاثون مليونا من الناس تنطوى على آثام اجتماعية تئن منها الانسانية ، وإنها لم تقم إلا على حب الغزو والنهب ! »

وما هرف به أيضاً العالم الأثرى كارمون جانو إذ يقول :

« إن الحضارة الاسلامية ليست إلا فظائع الغزو العربى »

ولئن كان لهؤلاء عذرهم فى جهلهم أساليب الأمة العربية وتجاهلهم حقيقة البلاد العربيه وتاريخها ، فما بال القارئ يعيش فى بيئة هذه الأمة ، ويقف على أساليب لغتها ، وبدائع حضارتها ، ثم لا يرى لها بعد ذلك حسنة إلا مسخها سيئة . . . بل سيئة تكاد ألا تكون فى مقدور بشرى مهما كانت درجة انحطاطه فى سلم المدنية ، وحلقة التطور ! وأعني بذلك الرجل المتحامل المتغرض الأب لامنس إذ يقول : « إن العربى أثبت فى فتوحه أنه جبان ضعيف فى الجندية ، لا يفكر فى غير المغانم ، وأن العرب ظهروا كما كانوا على عهد الرسول وسطاً فى القتال ، وعلى استعداد للنهب ، يحجمون أمام الخطر . . .

وأن لا قابلية لهم بشىء من أسباب الحضارة ، بل الفضل لأولئك المتفسخين فى فارس والعراق والشام ومصر وغيرها ، من الأقطار التى افتتحت ، وأن الحروب الصليبية وقائع البسالة ، وكان الصليبيون عجباً بأنظمتهم وترتيباتهم ، وأن اليهود عوملوا فى عهد الحروب الصليبية فى الغرب معاملة حسنة»

عجباً ! أنتهم بكل هذه الوحشية ويظل فى الدنيا من يذكرنا بخير ويدرس تاريخنا بإعجاب ! ويشهد بحضارتنا بفخر وإكبار ؟

وإننا إذ نحاول دحض هذه المفتريات ، وإزالة هذا الكلف من وجه التاريخ ، فلسنا نكيل لها الحق بالصاع الذى كالت لنا به التهم والشتائم ، وإنما نستند فى تفنيدها إلى استفتاء التاريخ ، واستنطاق الحق واستقراء الحوادث ، ثم إلى شهادة من لا تجمعهم بالعرب صلات الرحم وعلائق الدم وأواصر القربى ، ولا أية صلة تدفعهم إلى التحيز

إن الدعوة الصالحة لدين الله هي الأساس الذي ترتكز عليه دعائم التاريخ الاسلامى ، ذلك التاريخ المجيد الذى لم يعصف قط بعنازع الأهواء ، وأغراض العالم

ومن سمع بقوم يخرجون فى سبيل ربهم ، يدعون أعداء الله إلى الله ، فيلقى هؤلاء فى طريقهم القتاد .. والأشواك ، ويعفرون وجوههم بالطين والتراب ، ويحرضون عليهم سفهاءهم وصبيانهم ينالونهم بمختلف أنواع المهانات والموبقات ؛ فيهجرون أوطانهم وأملاكهم وأغنامهم ، وإبلهم ، ليشتروا بها نفوسهم! ثم يبيعون نفوسهم للموت ليشتروا بها وجه ربهم! من سمع بقوم تكون حالهم وتظل نفوسهم مع ذلك متعلقة بأعراض الدنيا الزائلة ، بمباهج الحياة الفانية ... ؟

إن الغزو — وما فى معناه — لا يكون إلا بين القبائل المتباعدة ، والعشائر المتعادية ، فيغزو بعضها بعضاً ، طلباً لأخذ ثأر ، وأملاً بكسب غنيمة ، والكل يعلم حق العلم أن المسلمين

(*) صورة من كتابنا « تحت راية الاسلام » الماثل للطبع

لم يناهضهم بادئ بدء إلا أهلهم الأقربون ، ومنهم لحمهم ودمهم ، وعشيرتهم القرشية ، وفيها عصبيتهم وفخرهم . ولسنا نعلم قط أن قبيلة كانت إلباً على غيرها فانقلبت فجأة وصارت حرباً على نفر من أفرادها ، طمعاً فى مغنم ... ! أو حبًّا فى أخذ ثأر ... !

وأى ثأر يكون لكل من على ، وأبى بكر ، وابن الخطاب ، ومن إليهم من المهاجرين عند إخوانهم القرشيين فينضموا إلى جانب محمد (صلى الله عليه وسلم) وهو من علمت بضعف بطانته وقلة عدته وعتاده للأخذ به ... ؟

ألأجل غنيمة يهجر الانسان بيته ووطنه وماشيته وثروته ، ليكافح أهله ، ويناوئ عشيرته ... ؟ كلا ... ! ثم كلا . لقد خرج هؤلاء على أهلهم من أجل دعوة سامية ، وما قاتلوا وجاهدوا إلا في سبيل الذب عنها « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين »

أرأيت كيف أن الاسلام لايبيح الاعتداء مطلقاً ، ولا يوجب القتال فى سبيل الله إلا دفاعاً ... ؟ !

لقد هاجر المسلمون عن بلادهم إلى يثرب هرباً بعقيدتهم السامية من أن يئدها الشرك ، وهى لما تؤد للعالم رسالة الحق والتوحيد . وهناك فى يثرب تعاود النفوس عنجهية القبيلة ، وشنشنة الجاهلية ؛ ويكاد الشر أن يستفحل بين المهاجرين والأنصار ، لو لم يتدارك النبي (ص) الموقف فيقف فيهم منادياً : «يا معشر المسلمين : الله الله . اتقوا الله. أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله إلى الاسلام ، وقطع به عنكم أمور الجاهلية ، واستنقذكم به من الكفر وألف بين قلوبكم »

أرأيت نبل هذا الخطاب وسموه ؟ لم يقل أيها المهاجرون ! ولا أيها الأنصار ... ! فليس فى الدين قبائل ولا عشائر ، وإنما الجميع إخوة ، ففيم إذاً نخوة الجاهلية ، وحزازات الصدور ، وشنشنة النفوس ... ؟ وفيم القتال فى غير سبيل الله ؟

ولقد اقترح بعض الصحابة على النبي بعد ما استفزوا في المدينة أن يأذنوا قريشاً بالحرب ، ويقاتلوها ويجزوها شراً بشر فيشفوا صدورهم مما يجدون عليها ، فدعاهم النبي إلى السكينة ، وقال لهم : « لم يؤذن لى بالقتال بعد »

فاى إنسان بشرى تناله قريش بمثل ما نالت به النبي (ص) ويكون فى بطانة قوية أطوع له من بنانه ، ثم تعرض عليه أخذ الثأر له فيدعوها إلى الهدوء والسكينة ، لأنه لا يقاتل طلباً لثأر ، ولا شفاء لغيظ ، بل استجابة لأمر ربه ، وهو لم يأمره بالقتال بعد

وظن بعض الجاهلين أن النبي إنما استمال اليثربيين بما توعدهم به من المغانم المادية ، والاسلاب العظيمة ، وهم في ظنهم هذا أبعد ما يكونون عن الحق . وحاشا للنبي أن يشحن النفوس بمثل هـذه الأمانى الباطلة الفانية « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعـذاب أليم » وإنما أغراهم بشيء أسمى من المغانم ، وأسمى من الذهب والفضة ؛ وذلك العلق النفيس الذى تشوفت إليه النفوس كان ... الجنة ...

ألا فانظر إلى هذا الموقف السامى الذى وقفه الرسول (ص) فى صفوف اليثربيين عند ما حاول أخذ بيعتهم ، وقف صلى الله عليه وسلم وقال :

— أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم .

فمد البراء بن معرور يده ، وكان سيد قومه وكبيرهم ، وقال: بايعنا يارسول الله فنحن والله أبناء الحروب ، وأهل الحلقة : ، ورثناها كابراً عن كابر .

وهم القـوم بالبيعة فاعترضهم العباس بن عبادة قائلاً : « يامعشر الخزرج ! أتعلمون علام تبايعون هذا الرجل ؟ إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس . فان كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة، وأخذ أشرافكم قتل أسلمتموه فمن الآن فدعوه فهو والله إن فعلتم خزى الدنيا والآخرة . وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة »

فأجاب القوم : إنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف ، فما لنا يارسول الله إن نحن وفينا بذلك ؟ . .

وكان المنتظر أن يمنيهم بخير الدنيا وجاهها ، وكان المنتظر أن يمنيهم بما تمنى به القادة والساسة المتحمسين إذ يسوقونهم إلى ساحات القتال ، ويعدونهم بشتى الوظائف والأموال ؛ ولكن شيئاً من ذلك لم يكن ، بل سكت هنيهة ، ثم رد عليهم مطمئناً وقال :

الجنة ... !

لقد كان الفتح الاسلامى فتحاً دينياً مبيناً لا شائبة فيه للأهواء المادية ، وكانت تسيره عاطفة روحية سامية تمقت الغزو والنهب والسلب . وليس أدل على ذلك من هذه الكلمة السامية التى ترويها لنا كتب السيرة عن النبي (ص) حين كان يطوف بقومه في بدر ويقول : « والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً ، مقبلاً غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة ...» . فقال عمير بن الحمام وبيده تمرات يأكلها : بخ بخ ، ما يبنى وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء ! ... ثم قذف التمرات من يده ، وأخذ سيفه وقاتل حتى قتل

ولقد كتب الله للمسلمين فى هذه المعركة النصر على المشركين وأسروا منهم سبعين أسيراً ، وكان منطق الغزو يقضى أن يفتك بهم ، بل كان منطق الحرب ... يقضى أن يفعل بهم ذلك أيضاً لا سيما وقد ناله منهم قبلا الذل والمهانة ، ولكن الاسلام لا يقر أخذ الثأر ، ويأبى على المسلمين أن يقاتلوا لهوى وحقد فى نفوسهم ؛ ولهذا فقد قبلوا منهم فدية قانونية عادلة (لا تتجاوز مقدور أضعفهم) بل إن فيهم من أطلق سراحه بتعليم عشرة من أطفال المدينة القراءة والكتابة ، وهذه الفدية الجديدة تنافى ما أشيع من عداء الاسلام للعلم وحثه على الغزو

وكان من أسرى بدر سهيل بن عمرو ، وكان سهيل قد شنع بخطبه على الرسول ، فقال له عمر بن الخطاب : دعنى أنزع ثنيتى عمرو فيدلع لسانه ، فلا يقوم عليك خطيباً فى موطن أبدا

وكان ذلك أقل ما يجب أن يفعله الرسول (ص) برجل شنع عليه بخطبه ، وهو لو فعله لما تجاوز العدل قط ، ولكن الرسول (ص) تنزه عن الحسد ، والحقد ، وتطهر قلبه بالاسلام من جميع أهواء النفوس فى الجاهلية ، فما كان منه إلا أن قال : « لا أمثل به فيمثل الله بى وإن كنت نبياً »

يالله من إيمان سام ! يعلو بالنفس عن أحقاد الدنيا ، ويجعلها على اتصال بخالقها ، فلا تتدلى لحضيض الأهواء البشرية الفاسدة

فقد أدب الله نبيه فأحسن تأديبه ، وليس من الأدب قط أن يمثل الانسان بأخيه ولو كان نبياً ! ... ولما أبى الرسول أن يمثل بسهيل بن عمرو ، بل رده إلى قومه عزيزاً مكرماً ، ليعلم البشرية بذلك درساً سامياً كاد جهلها به أن يرديها فى هوة الشقاء .

ولسنا نتبين جلال هذا الموقف ، وسمو هذا العفو ، إلا بمقارنتهما بتمثل قريش وغدرها .. فمن ذلك ما حدث لقتلى المسلمين فى واقعة أحد « فقد طافت هند بن عتبة والنسوة اللاتى جئن اليدان معها ، تجدع آذان القتلى وأنوفهم ؛ ولما وصلت إلى حمزة بن عبد المطلب بقرت بطنه وأخرجت كبده فلاكتها فلم تستسغها فلفظتها واتخذن من آذانهم وأنوفهم قلائد عدن بها إلى مكة »

وانظر إلى هذه الحادثة التى يتمثل فيها اللؤم والغدر بأجلى مظاهرهما ، والتى قابل بها المشركون القرشيون إخوانهم المسلمين بعد أن عفوا عن أسراهم ، وكان فى قدرتهم أن يمثلوا بهم ، ويجزوا أعناقهم عن أجسادهم ؛ فقد طلب أبو براء عامر بن مالك بن جعفر العامرى من النبى (ص) بعثاً يبشر قومه فى نجد ، وكان النبى يعرف غدر قريش والمشركين ، وكان يقدر سوء مصير هذا البعث الذى سيبعثه إليهم ، ولكن عامر بن مالك ما زال به حتى حمله على إيفاد هذا البعث ، فلقيهم عامر بن الطفيل عند بئر المعونة فقتلهم جميعاً دون أن يبدؤوه بحرب أو عداء ، وهكذا قضوا فى سبيل الله يحملون إليه أرواحهم الطاهرة على أكفهم البريئة وكانوا (٧٥) شهيداً ، فتأمل ! ...

ولقد كانت هذه الحادثة ، وما تجلى فيها من ضروب التفظيع كافية لأن تستفز النفوس الثائرة ، والأحقاد الجاهلية والحزازات الدميمة ، ليأخذ المسلمون بثأرهم ، ولكن هيهات ! هيهات !

فعصر الثأر قد مضى وانقضى ، وليس لهم إلا أن يصبروا على هذا الكيد والبلاء

وفى غزوة دومة الجندل دعا النبى عبد الرحمن بن عوف وسلمه اللواء وقال له : « خذ يا ابن عوف ، سيروا جميعاً فى سبيل الله فقاتلوا من كفر بالله ، ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا وليداً فهذا عهد الله وسيرة نبيه فيكم »

فمن هذه الوصية الخالدة ، وما فيها من أسمى المبادئ الانسانية تتبينون حقيقة الاسلام وقاعدة جهاده ضد من كفروا بالله وناوؤا رسوله ، وأذلوا المؤمنين ...

« البقية فى العدد القادم »

خليل جمعة الطوال